تنصيب اللاعب الغائب ..

انطلت عليه ـ هو نفسه ـ فكرة أنه صار ثوريًّا، وأنه يتمتع بشرعية النظام الذى يدور فى فلكه، وصار يردد فى جلساته جملًا بعينها من خطب جمال عبد الناصر، وتعددت جلساته ثم انتشرت من مكتبه الخاص، إلى المجلس المحلى، إلى مقر الاتحاد الاشتراكى، ثم اختلطت أعباؤه غير البريئة بهذه الأعباء البريئة، وامتزجت شخوصه الخالية من البراءة بشخوص لهم بريق البراءة. وزاد معدل اقتناعه بأهميته عندما رأى هذه الأهمية فى عيون من يتعامل معهم.. لكنه ـ وهو السابح توًّا فى بحر السياسة ـ اكتشف أن العوم والسباحة فى هذا البحر ليسا بحاجة إلى موهبة عظيمة إنما وجد أن حظه العظيم تمثل فى أن من سبقوه إلى هذا العمل تعوزهم الكفاءة .. وكان قد اتفق مع نفسه أن كفاءة السياسة قوامها النفاق وعمقها التآمر، وهو بالصدفة يملك منهما الكثير.

وبدءًا من مشاركته بمؤتمر الاتحاد العام للعمال بحلوان تعمد أن يلفت إليه الأنظار، واستثمر فرصته فى الحصول على مداخلة أمام الرئيس فأعلن، أن ثورة الطلبة ضد أحكام الطيران ثورة نبيلة تعبر عن عمق وطنية هؤلاء الطلبة:

ـ «فهم غيورون على بلدهم يا سيادة الرئيس، ولا ذنب لهم فى توسيع نطاق الإضرابات بعد أن أندس بينهم أعداء الثورة هؤلاء الذين أسميتهم سيادتك بالثورة المضادة..»

وظل ينقر على هذا الزجاج نقرًا خفيفًا حتى أيقظ النائمين خلفه، فتساءلوا: من هو هذا القادم الجديد؟.. هل الثورة ترتدى ثوبًا جديدًا، وتولد وجوهًا جديدة؟..

لكنه بينه وبين نفسه ومن خلال محاوراته مع أشرف بركات تارة وحشمت تارة أخرى أيقن أنه لا ثوب جديد، ولا مرحلة جديدة لكنه الخوف والقلق .. فالهزيمة ثقيلة، والثقة

مهتزة، والإمكانات محدودة، والعدو شرس، وعبد الناصر تولاه الإرهاق، ويوارى ذلك حتى عن نفسه.. وصارت آلامه النفسية أنه لم يعثر على مخرج يحفظ كرامته، ويعزز عزته التى لا يود لها الغروب فهيبته امتزجت بهيبة الوطن.. وهو ـ والحق يقال ـ لا يزال حريصًا عليهما ..

* * *

وظل السيد النحال يراقب اللحظة التى من الممكن أن يتحول فيها جمال عبد الناصر إلى كلاف البهائم عباس عبد المحسن النحال.. فأبوه كان راعيًا فقد السيطرة على رعيته بعد أن فقد مقومات الراعى، ولم يكن له أن يقف مع أولاده موقف المربى الفاضل وهو الذى لا يملك لهم فضلًا أو يتقن تربية، فهو ضائع مثلهم فتحول إلى رجل يحركه الضياع ويوجهه ضعفه فصار يشجع مثالب رعيته..

وانتهى السيد عباس عبد المحسن النحال وهو يضع صورتين متقابلتين لكلاف حقير وزعيم مذبوح إلى أن الضياع قتل الأول والخوف من الضياع يقتل الثانى ببطء شديد، وأن الضائع الأول قد نام نومة الاستسلام بعد أن غفت فى أحضانه البائسة فكرة اللاجدوى، أما الزعيم القلق فهو رب المنزل الذى وثق أن اللصوص قد عرفوا طريق منزله وسرقوا طرفًا منه، وقد يكونون فى طريقهم لسرقة الباقى.. وصار القلق لا يجعله ينام وهو ينصت إلى دبيب الأقدام تقترب منه فصار يوقظ رعيته بين وقت وآخر صائحًا بهم: انتبهوا.. انتبهوا..

وفى كرسيه بالصفوف الأولى لم يمل من سماع هذه التحذيرات التى يصدرها الزعيم.. فى المكتب المركزى لاتحاد العمال العرب، وفى المؤتمر الشعبى بالمنصورة، وفى جامعة القاهرة، وفى عيد العمال بكفر الدوار.. وفى المؤتمر القومى للاتحاد الاشتراكى بجامعة القاهرة.. أحاديث، وخطب، ولهاث، وخوف، وقلق:

لابد أن يسيطر الشعب على حقوقه.

لابد أن يحافظ الشعب على وسائل إنتاجه.

الثورة المضادة تسعى لتحقيق أهدافها لعودة سيطرة الإقطاع.

الثورة المضادة تسعى لعودة سيطرة رأس المال.

أعداء الثورة يتحالفون فى الخفاء مع القوى الغربية.

العمل السياسى لم ينشط النشاط الكافى.

نحن بحاجة إلى النقد الذاتى لنواجه التجريح فى الثورة والاشتراكية.

* * *

اقترب من مثله الأعلى أشرف بركات وسأله:

ـ «لم أفهم يا فندم موضوع النقد الذاتى الذى تحدث عنه السيد الرئيس»

ـ «أنت تفهم، لكنك تريد التأكد من صحة ما تفهمه»

ـ «ولكنى أريد أن أفهم منك»

ـ «أكنس من عقلك أولًا كل مفاهيمك الجديدة. فربما تفهمنى.. فأنت حافظ بدوى جديد يبدأ رحلة صعوده بحفظ بيان ٣٠ مارس..»

ـ «أليس هو الميثاق الجديد.؟»

ـ «إذا كثرت المواثيق زادت الفجوات»

ـ «تقصد أنه مجرد كلام»

ـ «كلام فخيم لا يقوى على حماية مؤسسة هشة»

ـ «لدينا مؤسسات كثيرة»

ـ «هى مؤسسة واحدة يقوم عليها رجل واحد.. ويتكرم علينا أحيانًا بأن ننقده»

ـ «فى المؤتمرات العمالية نتحدث أمامه بكل حرية»

ـ «وإلى أين انتهيتم؟.. التفعيل الحقيقى هو وجود حزب معارض»

ـ «الرئيس قال عن ذلك إنه من الخطر عمل أحزاب.. فالحزب الرجعى جاهز للظهور»

ـ «إذن، هناك سرطان فى جسم النظام، ولكنه يهمل الكشف عنه»

تذكر سرطان فخذ طاهر زين الدين، وتأكد أن سرطان طاهر الحقيقى أنه لم يعقد قرانه على فوزية، وتركها نهبًا له تارة ولأمير تارة أخرى.. فوزية كانت المؤسسة الهشة التى كان

من السهل الاستيلاء عليها.. ووجد أنه وأميرًا إذا كان قد تربصا لفوزية فهناك أمراء وأسياد أخر يتربصون لنظام عبد الناصر.. ووجد أنه صورة مطابقة لأشرف بركات.. فهذا الرجل فى حقيقته خارج ـ موضوعًا ـ عن طوع النظام.. تمامًا كما خرج هو عن طوع أبيه بعد أن تأكد أن البقاء فى أحضانه هو الموت بعينه..

* * *

وعندما شاهده يتحدث فى ندوة شعبية كان ينقلها التليفزيون قالت فوزية:

ـ «هذا هو أشرف بركات»

ـ «لا.. إنه هنا أنور السادات»

وراح يتابع ما يقوله عن تحالف قوى الشعب العاملة، وكيف أن هذا التحالف يجتمع تحت راية الاتحاد الاشتراكى حسب نص الميثاق ليجمع العمال والفلاحين والمثقفين والجنود والرأسمالية الوطنية.. ثم راح يؤكد لبعض من يطالبون بإلغاء الاتحاد الاشتراكى وعمل أحزاب بديلة له أنهم يقومون بالقضاء على تحالف قوى الشعب والدخول بنا فى متاهة ديكتاتورية الطبقة العاملة والأحزاب الرجعية، وديكتاتورية الإقطاع ورأس المال.

وسأله فى أول لقاء:

ـ «أشرف بك.. حتى الآن لم أفهمك.. ولم أتعرف على سياستك»

وأجابه أشرف بركات وهو يلقم الجوزة فى فمه مبتسمًا فى خبث:

ـ «سياستى هى أن تظل حائرًا فى التعرف على سياستى»

وتذكر نصيحة قديمة لرجل كلاف غارق فى الجوع والبلاهة:

ـ «أنت تتاجر فى الحشيش.. هذه حقيقة.. ولكن اجعلها مجرد ظن لا يرقى إلى اليقين عند الناس»

ووجد أن فكرة أن يحتار الناس فى أمرك هى قمة السياسة عند أشرف بركات المعجب دومًا بأنور السادات الذى ما زال التاريخ حائرًا فى أمر هروبه إلى السينما فى ليلة الثورة وأنه لم يظهر مع الضباط الثوار إلا بعد أن تحقق لهم النجاح.

وفى ذلك يقول أشرف بركات: «أنور السادات هذا عبقرى.. فهو لم يهرب لينقذ نفسه

من الإعدام إذا فشلت الثورة، ولكنه هرب لينقذ الثورة نفسها بالإبقاء على واحد منها يستطيع أن يفجرها من جديد..»

ثم يضحك مقهقهًا وهو يقول معلقًا على ذلك:

ـ «ولكن جمال عبد الناصر أكثر لؤمًا منه، فعندما كشف خدعته أمره أن يلقى بيان الثورة بنفسه، حتى يكون أول من يُعدم منهم إذا تمكن الملك والإنجليز من القضاء عليهم..»

ولم يتعجب السيد النحال وهو يتلقى أحد دروس السياسة.. فليس من العجيب أن يتآمر السياسى على رفيق دربه، لكن من الملائم أن يبحث لذلك عن ثوب أخلاقى.. فالهرب من أجل إنقاذ الثورة عند أنور السادات: نبل، وأوامر عبد الناصر له بإلقاء بيان الثورة: شرف، وفيما بين النبل والشرف تكمن المؤامرة.. هذه هى السياسة.. ووجد أنه تربى فى كنف كلاف كان معجونًا بالسياسة دون أن يعرف معنى هذه الكلمة.. فشبكة السمك التى سرقها أخوه الصغير كانت تنبع عن نفسها أنها مسروقة لكثرة ما بها من سمك لا يمكن أن يصطاده بسنارته، لكن عباس النحال بارك للسارق جهده وأمرهم بطبخ السمك فورًا.. والعنوان «**خذ ما تأخذه عنوة.. ما دامت معدتك تقدر على هضمه**».. وربط السيد النحال بين سياسة عباس النحال فى الإمساك فورًا بالسمك وبين قرار عبد الناصر بتأميم قناة السويس.

* * *

قال له حشمت بركات.

ـ «أخى أشرف يرقب صعودك باهتمام.. ويوصيك ألا تبالغ.. فالنفاق علم له أصوله.. ويذكرك بأنور السادات الذى دق مسماره فى خشبة النظام فى بدء الثورة وصعود نجم جمال عبد الناصر بكتابه الشهير «يا ولدى هذا أبوك جمال» ثم بكتاب آخر، واكتفى بهما، وأخفى رأس مسماره داخل الخشبة.. واحتارت الكماشات فى خلعه.. فالكماشات دومًا جاهزة لخلع المسامير ذات الرءوس البارزة»

* * *

وفى لقائه مع أشرف بركات قال له:

«وصلتنى نصيحتك.. فشكرًا لك.. بريق النفاق كاد يعمينى»

ـ «هذا ما لاحظته.. ولكن يمكنك أن ترتدى ثوب المعارض الحنون.. المعارض الذى قلبه على النظام.. ضع عينك على وزير تافه من غير أهل الثقة وانهل عليه نقدًا شرط أن تمسك ببعض مثالبه، وافعل العكس مع وزير من أهل الثقة.. وانتظر النتيجة»

* * *

وفى منشية البكرى كان سامى شرف يتميز غيظًا وهو يحاول مواراة ذلك عن الرئيس جمال عبد الناصر إثر انتهائه من تنصيب أنور السادات نائبًا أول له قبل سفره إلى مؤتمر القمة العربى بالرباط.. وكانت المخابرات قد أكدت فى تقاريرها أن هناك مؤامرة على حياة الرئيس وأن هناك خطة لاغتياله، فقال له:

ـ «لم نتعود من سيادتك هذه القرارات المهمة.. السريعة إنه انقلاب وليس قرارًا»

وأخفى عبد الناصر بارقة حيرة فى عينية، ففهم سامى شرف أن الرجل وصل إلى ماوصل إليه بعد إرهاق تراكمت فيه فوق صدرة تلال من هموم الليالى..

ـ «هذا الرجل يا سامى يتحدث عن أشياء فى مجالسه الخاصة لا يمكننى القيام بها.. حسين الشافعى، وعلى صبرى، وأمثالهما ساسة تقليديون سيسيرون على دربى من قبل الحب والوطنية.. وسوف يتوهونَ لأنهم ليسوا.. أنا.»

وتذكر سامى شرف بعض ما يصله من أحاديث أشرف بركات فى مجالسه الخاصه، وكان واثقًا أنها تصل إلى جمال عبد الناصر عبر قنوات أخرى، كما أنه واثق أن الرئيس يمر عليها مرور الكرام لأنه لا يخشى جانب أشرف بركات، فليقل ما يشاء عن خسارتنا للعلاقة مع أمريكا وخسارتنا المضاعفه فى رهان على جواد خاسر هو روسيا، وليقل ما يشاء عن احتضان اليهود، فكلها آراء لا تتعدى حدود الهمس.. ولكن، كيف ينصبه نائبًا رغم علمه بحقيقة ما يؤمن به؟..

* * *

كان كل شىء متألقًا وطافحًا بالسعادة فى قلب الروف الفسيح للإقطاعى السابق فايز

فودة.. وكانت هناك كثرة فى البشر وفى الطعام وفى الحشيش وفى المرح.. وكان حشمت بركات يتصدر الحفل الملىء بالبذخ كالبالونة المنتفخة بالغرور، ولسان حاله يقول:

ـ «صار الملك أقرب إلينا من حبل الوريد»

وعلى غير العادة كان المدح من نصيب جمال عبد الناصر هذه المرة وبصوت عال.. فهو الزعيم الملهم الذى اختار فأحسن الاختيار.. اختيار النائب الأول لرئيس الجمهورية.. أو رئيس الجمهورية القادم. فقد هتف فايز فودة:

ـ «لا يصح إلا الصحيح الذى جلس طويلًا طويلًا على دكة الاحتياطى، آن لنا أن نرى اللعب على أصوله»

وقال معوض الجارحى وهو ينحنى بذراع الشيشة نحو سيده حشمت بركات:

ـ «عليك نور يا فايز باشا.. فكم من فريق هزم بسبب غياب لاعب واحد»

وأيدهما ممتاز إبراهيم: «وكم من انتصار حدث لخيبة الفريق المنافس وليس لشطارتنا»

وبحث السيد النحال عن مداخلة يداعب بها غرور موتوره الشفاط حشمت بركات فقال:

ـ «ويحسب لرئيسنا القادم أنه عزف عن المناصب ولم يلهث خلفها حتى لهثت المناصب خلفه»

وتنحنح حشمت بركات.. فصمتوا جميعًا.. باحترام مرسوم وفضول باد:

ـ «أهم شىء هو التوقيت.. الحل السلمى يفشل مع إسرائيل يومًا بعد يوم. وجونار يارنج والسلم والحرب معركتان تحتاجان لداهية.. وما فعله عبد الناصر هو أنه قال لإسرائيل لقد أتيت لكم بداهية يا ولاد الـ...»

وانفجروا جميعًا فى ضحك هستيرى ـ نصفه نفاق ـ ولم يتوقفوا إلا عندما استعد لإكمال حديثه:

ـ «أتيت لكم بمنوفى، فلتجربوا المنايفة يا ولاد الـ..»

وعاودوا ضحكهم الهستيرى الذى قال فايز فودة من خلاله:

ـ «فطنة جمال عبد الناصر كانت خافية عنا»

فلاحقه حشمت بركات ضاحكًا:

ـ «تمامًا مثل عشائك ما زال خافيًا عنا، أين اللحم والذى منه يا فايز؟»

فأسرع فايز بإطلاق أوامره للخدم أن يسرعوا بتقديم الوليمة.

* * *

وفى غرفة نومه قال لها وهو يتمدد بجوارها على السرير:

ـ «منظرك يدل على أنك مقتولة من كثرة استقبال الضيوف المهنئين للسيد النائب»

ولم تعلق فوزية على ملاحظته، ولكنها سألته باستنكار:

ـ «هل إذا مات جمال عبد الناصر سيحل محله أنور السادات؟»

ـ «ومالك تتعجبين هكذا؟.. أراك لا تصدقين ذلك»

ـ «طبعًا، لا يمكننى أن أصدق ذلك، قل لى: هل جمال عبد الناصر يدخن الحشيش؟»

ضحك طويلًا إذ تخيلها قد وصل بها الظن أنه يحشش مع الرئيس بعد أن قابله:

ـ «أتظنين يا مجنونة أن كل من أقابلهم أحشش معهم»

ـ «أنا أسأل فقط.. هل هو يحب الحشيش مثلكم.. ويعشق التآمر مثلكم؟»

ـ «أى تآمر يا مجنونة؟»

ـ «ما يحدث فى المطبخ وأوانى الطعام عند وصوله ضيفًا علينا..»

لمعت عيناه ببريق غريب، ثم صوب إليها نظرة حادة: «مثل موضوع حكمت وبشاير»

ـ «بالضبط..»

ـ «إياك أن تذكرى هذا الموضوع أمام أحد، وإلا فمصيرك القتل..»

وأصابها الخرس.. إلا أنها التفتت مؤخرًا إلى سقطته عندما شبّه مؤامرة المطبخ عند أشرف بركات بمؤامرة دس السم لحكمت وبشاير.. فسقطت فى فراغ جديد وهى لائذه بالحيرة والهم والخوف الشديد..